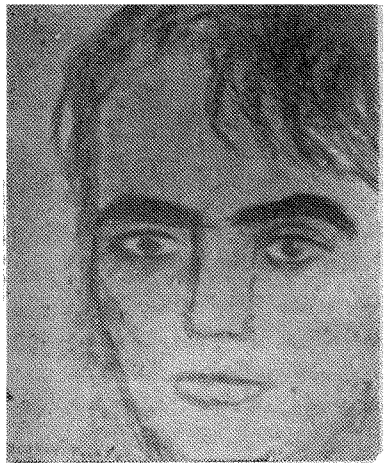

لوركا : شاعر أحبّ الناس

بقلم ج. ل. جلي

ليس ثمة شاعر اسباني معاصر احرز شهرة عالمية مثل لوركا . فقد ساعدت ترجمة اعماله في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية على شهرته ، وعلى الاخص في بريطانيا والاميركتين . ويعود سبب شهرته المبكرة خارج اسبانيا الى الظروف التراجيدية العنيفة لموته في الحرب الاهلية الاسبانية . ولو ان السنوات التي اعقبت ذلك برهنت على ان شهرته تستند الى اسس راسخة اكثر من استنادها الى اسس عاطفية . ان شخصية لوركا ، في الحقيقة ، قد تكاملت مع مرور الزمن ، ويمكن التأكيد بثقة ان شعره يقف الان بين افضل ما انتجته اسبانيا . والمختارات الحالية تشكل ـ مع مقالته عن « ألديواندا » Duende الملحقة بالمجموعة ـ اهم اعماله الشعرية (١) .

ولد فيديريكو غارسيا لوركا في « فونتيفا كيروس » وسط سهول غرناطة الخصبة في ٥ حزيران عام ١٨٩٨ (٢) ، واغتيل في تموز عام ١٩٣٦ من قبل أشخاص مجهولين (٣) . خلال الايام الاولى من الحرب الاهلية الاسبانية . ويبدو ان اغتياله جرى في « ثيزنار » على التلال خارج غرناطة الا ان جسده ، كما تنبأ هو ، لم يعثر عليه ابدا :

ادركت أني قتلت
فتشوا المقاهي والمقابر والكنائس
فتحوا البراميل والخزانات
نهبوا ثلاثة هياكل عظيمة
ليقتلعوا أسنانها الذهبية
الا انهم لم يجدوني
انهم لم يجدوني
كلا . انهم لم يجدوني

وفي احدى المقابلات تحدث قائلا : « كان أبي مزارعا غنيا وفارسا بارعا ، أما امي فقد انحدرت من عائلة مرموقة » . كان لوركا اكبر ابناء عائلته المتكونة من اخوين واختين . وقد قضى سنوات حياته الاولى في حقل العائلة . وبعد ولادته مباشرة الم به مرض خطير لم يستطع بسببه المشي حتى الرابعة من عمره . وقد ترك ذلك فيه عرجا بسيطا كان يصعب ملاحظته عندما اصبح كبيرا . وكما اشار صديقه ر.م. نادال فان عاهته الجسدية اثرت بشكل ملموس على تكوين شخصيته ـ دون ان تؤثر على مسرحه الطبيعي ـ وقد اتسعت قواه التصويرية واحاسيسه لعدم مقدرته على الاشتراك في العاب الاطفال الاخرين. وعبر عن نفسه بمحاكاة المسارح ودمى الاراجوز والاحتفالات وارتداء ملابس خدم العائلة الكبار وملابس اخوته الصغار . وهكذا استطاع ان يلف حوله وسطه العائلي . ولقد اشترى بأول توفير له مسرح دمى صغيرا من غرناطة . ولما لم تكن هناك مسرحيات مطبوعة فقد كان على فيديريكو ان يكتبها بنفسه . ومنذ ذلك الحين لم يفقد ولعه بالمسرح الذي أصبح جزءا متمما لعمله .

وخلال سني حياته الاولى لم تكن لديه انجازات فكرية عميقة . لقد علمته أمه ـ التي كانت لفترة ما معلمة ـ احرفه الاولى . كانت الحياة آمنة وسعيدة في مزرعة العائلة وعاش هناك بتماس شديد مع الريف وحياة القرية الغنية بالتراث الاندلسي.ولقد تعلم ان يهمهم بانغام شعبية قبل ان يتعلم الكلام.وتعلم من الخدم الكبار حكايات وقصصا خيالية واغاني شعبية ، وان معظم ما تلقاه خلال هذه الفترة وجد ما يماثله في شعره وكما صرح هو فقد كانت تلك بداية في تجربته الشعرية . آن اغنية « المهد » التالية التي كان مولعا بها كثيرا والتي استلهم منها تنويمة « عرس الدم » هي مثال للتجسيد الفنائي البسيط الذي كان يستوحيه. ورغم استحالة ترجمة هذه المقطوعة ، الا أن ترجمتها التقريبية هي :

ولول ، دلول ، دلول
دلول صغيره
لمن أقتاد حصانه الى الماء
ولم يدعه يشرب (٤)

وعندما حان الوقت لدراسة فيديريكو وتوجيهه بشكل جدي ، انتقلت العائلة الى غرناطة . وهناك حصل على الثقافة الاعتيادية لفتى في مثل مركزه الاجتماعي حتى وصل المرحلة الجامعية التي بدأها في غرناطة الا انه لم يتمها ابدا . وبنفس الطريقة لم يتم دراسته عند ذهابه الى مدريد ، لانه لم يكن ميالا للدراسة الاكاديمية . كانت رغباته خارج حدود المناهج الجامعية . فهو اكثر سعادة عندما يتحدث الى الناس في المقاهي او عند استكشافه ارياف وحدائق غرناطة واكتشاف الحضارات العديدة التي صنعت بلاد الاندلس القديمة . وكان يهتم بمعرفة الفجر ، الذين كانوا احد مصادر الهامه الرئيسية . وقد تعلم العزف على البيانو والقيثار ، رغم انه ترك الاخير . وحين التقى بمانويل دي فالا اصبح صديقا عظيما واستاذا له وشجعه على جمع الاغاني الشعبية القديمة وتلحينها .

---

١ ـ هذه الدراسة ، هي مقدمة مجموعة شعرية للوركا صدرت في سلسلة The Penguin Poets بعنوان Lorca ترجمها الى الانكليزية ج. ل. جلي J.L. Gili « المترجمان »

٢ ـ ورد في مقدمة الدكتور علي سعد المسرحية « عرس الدم » انه ولد في ٥ حزيران عام ١٨٩٩ « المترجمان »

٣ ـ من المؤكد ان عصابات الحرس الاهلي الفاشية هي التي اغتالت لوركا ، وقد اورد الدكتور علي سعد وصفا للعملية اغتياله في مقدمته « لعرس الدم » . ومرثاة انطونيو ماخادو تؤكد ذلك . « المترجمان »

٤ ـ رأينا أن من المفيد ترجمة مقطع الفنتوميمة التي وردت في « عرس الدم » لابراز درجة محاكاته للفنتوميمة الشعبية الاصلية ، مؤثرين ترجمة كلمة Lullaby الانكليزية بكلمة دلليل الفولكلورية العراقية :

دلليل صغيري ، دلليل للحصان الابي ، الذي يأبى شرب الماء .
« المترجمان »

كان القسم الاعظم من قراءاته يتضمن تراجم الادب الكلاسيكي وخصوصا المسرحيات اليونانية واعمال شكسبير وابسن وفكتور هيجو ومترلنك و لادب الكلاسيكي الاسباني واعمال اولئك الكتاب الذين ينتمون الى ما يدعى بجيل ٩٨ مثل ما خادو وانومونو وآزورين . كما اطلع على اعمال الشعراء الاسبان الرومانسيين والمعاصرين ابتداء من روبن واريو حتى جوان رامون جيمنز .

اما اصدقاؤه في غرناطة فقد كانوا من الرسامين والنحاتين والموسيقيين و لشعراء . وقد نظم بالتعاون مع دي فالا مهرجانا « للحانة هوندو » Cante Jondo ـ الاغنية العميقه ـ لجنوب اسبانيا ـ وبهذا ازداد احتكاكه بعالم الفجر ، بمغنيه ورافصيه . وقد كتب ج. ب تريند ان العديد من المثقفين في اسبانيا اصبحوا يميلون ، آنذاك ، الى « انكانت هوندو » لانهم « يرغبون في الحصول على شيء ما من اقدم حضارة في شبه الجزيرة » . وقد جذبت لوركا بلا شك لهذا المجتمع نفس الاسباب .

وعندما كان لوركا في غرناطة طبع اول كتاب نثري له « انطباعات ومناظر » عام ١٩١٨ ـ Impresiones y Paisajes ـ وقد كان ثمرة لكثير من رحلاته حول اسبانيا مع مجموعة يرأسها استاذ الفن في جامعة غرناطة . وتكشف هذه المجموعة القصصية عن شخصية الشاعر وتشير الى نهاية مرحلته الاولى . وفي السنة التالية وصل الى مدريد ، وكان غرضه الظاهري اتمام دراسته ، وهناك ، كما في غرناطة ، ظلت ميوله متجهة الى الدراسات غير الاكاديمية . ومن حسن حظه انه نصح بأتمام دراسته في « معهد الطلبة » Residencia de Estudiantes ذي التقاليد الليبرالية العريقة . وكان المعهد يضم العديد من الشعراء البارزين امثال انطونيو ماخادو ، جوان رامون جيمنز ، ج مورينو فيلا ، بيدرو ساليناس ، رافائيل البرتي، جورج جويلين . وقد وجد لوركا في رئيس المعهد دون البرتو جيمنز صديقا يوليه اهتماما كبيرا ويهيىء له كل الامكانات التي تساعده على تنمية شخصيته . وهناك انتج مسرحيات والف في البيانو ورسم بالزيت او بالطباشير المنون ، وسجل اغاني شعبية ونظم الشعر : هوايته المفضلة . وفي هذا الظرف المناسب ازداد احتكاكه بالمثقفين الاسبان البارزين امثال انومونو ، واورتيغا آي غاسيت الذين كانوا يلتقون هناك . كما التقى ببعض الكتاب العالميين المشهورين الذين كانوا يحاضرون في المعهد امثال برغسون ، فاليري ، كلوديل ، آراغون ، كينز ، جيستركون ، هـ. ج ويلز وغيرهم . ومكث في المعهد بضع سنوات دون ان يتم دراسته ، الا انه كان يعمل باستمرار ويصقل شعره ويعي وعيا كاملا مسألة كونه شاعرا .

كانت المستقبلية والمادية والتطورات الاخرى في الاوساط الادبية الاوروبية لفترة ما بعد الحرب تؤثر على العديد من معاصري لوركا ، لكنه لم يتأثر بشكل جدي حتى صداقته مع سلفادور دالي ممثل السريالية البارز الذي عاش في المعهد لفترة من الزمن ، وعند ذلك بدأ يعير اهتماما للتيارات المعاصرة . ان ما تلقاه من تأثيرات معاصرة وموروثة تمثل في اصطلاحاته الشعرية الخاصة ، وقد ظهر ذلك بشكل لاواع على الاغلب . ان كلمة ما او مقطعا يسمعه كان يظهر يوما ما في احدى قصائده دون ان يشعر بذلك . وكان هذا احد عوامل اقترابه الذاتي نحو فنه . نقد قال غالير دي توري عن اعادة تمثله وخلقه للاغاني الشعبية : « انه يغنيها ، انه يحلم بها ، يكتشفها ثانية ، وبكلمة اخرى فانه يحيلها شعرا » وبهذا الصدد قال شقيقه فرانسيسكو : « خلال رحلة الى سيرا نيفادا ، كان سائق البغل يغني :

وأخذتها الى النهر
ظانا انها عذراء
لكنها كانت متزوجة

وبعد فترة ، عندما كنا نتحدث عن أغنية « الزوجة الخائنة » ذكرت فيديريكو بأغنية سائق البغل هذه ولدهشتي الكبيرة لاحظت انه كان قد نسيها تماما . واعتقد ان الابيات الثلاثة الاولى من الاغنية كانت تشابه بقية القصيدة . واستطيع القول بأنه لم يرق له تأكيدي ذلك ، فقد استمر على الاعتقاد بأني كنت مخطئا » .

كان اول ديوان له هو « كتاب الاشعار » Libro de Poemas وقد طبع عام ١٩٢١ دون ان يثير اهتماما خارج اوساط معارفه . كان لوركا ينفر من النشر وكان اصدقاؤه الادباء يستخدمون اساليب لا حصر لها للحصول على قصيدة منه ، لاحدى مجلاتهم . ورغم انه كتب العديد من القصائد بعد عام ١٩٢١ الا ان ديوانه الشعري التالي « اناشيد » Canciones لم يظهر حتى عام ١٩٢٧ . كانت شخصيته قوية تؤثر على الشعراء الاخرين بشكل ملحوظ حتى قبل ظهور اعماله الهامة . وكان يفضل قراءة قصائده بنفسه لانه كما قال في مقالته التوضيحية حول الديوان بأن الشعر يتطلب شخصا بمثابة مفسر له . وبتلك القراءات تمكن ان يمارس تأثيرا أكبر من اعماله المطبوعة . وهذا ما اشار اليه روي كامبل عندما قارنه مع ويلان توماس الذي كان يستنفد اقصى ما تحمله الكلمات من معنى عبر اصواتها . وربما يعود سبب ذلك الى ان كليهما ولدا في فطرين كانت فيهما التقاليد الموسيقية والغنائية عريقة جدا بين الناس . ولكي نفهم الديوندا وسحر شخصيته ، فمن المفيد اقتباس ما قاله معاصروه عنه . كتب الشاعر رفائيل البرتي : « له اداء ذو عاطفة كهربائية ، جاذبية ، جو لا يقاوم من السحر ، ينساب منه ، يحيط بمستمعيه ويأسرهم عندما يتكلم ويلقي او يرتجل مشهدا مسرحيا او يغني بمصاحبة البيانو ، لان لوركا كان يجد بيانو اينما يذهب » . وحتى الشاعر بيدرو ساليناس الذي يكبره بسبع سنوات تحدث عنه قائلا « لقد كان يبدو كأنه الفرح والبهجة تنطلقان امامنا ولم يكن لنا من خيار سوى متابعته » . ان شخصيته المرحة ، التي لا تقاوم ترتبط بطبيعته المسرحية التي لم تخلصه من مزاجه السوداوي . وقد تحدث صديقه الشاعر فنسنت الكساندر كيف انه رآه « يظل فجأة في سمو الليل ، من بعض الشرفات الغريبة عندما غمر وجهه ضوء القمر .شعرت ان ذراعيه تستلقيان في الهواء بينما قدماه تغوصان في الزمن ، في القرون السالفة ، مع اكثر الجذور عمقا في الارض الاسبانية » . وتعكس هذه الازدواجية في شخصيته ، شخصية اسبانيا نفسها ، فهي مرحة وكئيبة في آن واحد .

ومثل لوركا في مدريد ، عام ١٩٢٠ ، مقطعا من احدى مسرحياته المبكرة «سحر الفراشة الشرير» El maleficio de la mariposa وكانت اول مجازفة مسرحية له هي مسرحيته التاريخية الشعرية « ماريانا بنيدا » التي برهنت على نجاحها ، ومثلت في مدريد عام ١٩٢٧ . وجدير بالملاحظة ، ان تطوره ككاتب مسرحي قد سار بموازاة تطوره كشاعر . وقد كان يلتقي مع ت.س. اليوت في قوله « بأن الوسط الامثل للشعر واكثر الوسائل المباشرة لفائدته الاجتماعية هو المسرح » . لان لوركا كان واعيا اجتماعيا ، مؤمنا بان على الشاعر « ان يضحك ، ويبكي مع الناس في هذه اللحظة الدرامية للعالم » .

وشهدت السنة التالية طبع اكثر دواوينه شعبية « اغان غجرية » Romancero gitano الذي احرز نجاحا كبيرا في اسبانيا وفي جميع البلدان الناطقة بالاسبانية . ويتكون الديوان من اشعار قصصية معظمها ذو محتوى غجري نظمت على هيئة حكايات عاطفية تقليدية مع التزامها بقافية في كل بيت ثان . وسهولتها الواضحة تبدو متناقضة وبراعة الشاعر التكنيكية . والعناصر المميزة لشعره هي استحضاره لمشاعره ، حساسيته ، استخدامه كل الاساطير الفجرية ، ادراكه للموت، استعاراته الرائعة غير المبالغ بها . وبالنسبة لشعر لوركا لا نجد صعوبة في العثور على ما يماثل موضوعاته لدى سابقيه . فالابيات الاولى من قصيدته المشهورة « حكاية السائر في نومه » (٥) يكاد يكون معظمها اعادة لقصيدة جوان رامون جيمنز التي مطلعها :

Verde es la nina. Tiene verdes ojos, pelo verde

---

(٥) ان الابيات الاولى من قصيدة « حكاية السائر في نومه » هي :
Verde que te quiro, verde viento , verdes ramas

خضراء ، احبك خضراء ريح خضراء ، اغصان خضر ـ المترجمان ـ

الا ان هذا التشابه ليس اكثر من تشابه اغنية سائق البغل التي كانت بقطه انطرق لقصيدته « الزوجة الخائنة » ، واشعار سابقة مماثلة يمكن العثور عليها في Verdes Veces لفونفودا مثلا او في الاشعار القصصية الشعبية ، الا ان هذا يبرهن ان لوركا كان متشبعا بالتراث الاسباني الذي ينتهي بالنسبة له عند جوان رامون جيمنز .

ويحقق لوركا في « اغان غجرية » امتزاجا بين الاتجاهين الشعبي والفني ، بين الموروث والمعاصر . وربما يكون في هذا سبب الاجمال العام على نتاجاته . اذ ليس هناك انفصام عند لوركا بين ما هو معاصر وما هو موروث . وفي الحقيقة ، فان الاتجاه الموروث يحتفظ بحيويته ضمن محاولاته التجديدية في الشعر .

لم يكتب لوركا للاطفال ، كما كان يفعل معظم شعراء جيله . لقد كان يريد ، حسب تعبيره ، « ان تفهم صور شخوصي التي ابنيها ، من قبل الشخوص نفسها » . لقد كان بطبيعته يحب ان يفهم وان يحب الجميع من خلال شعره . ولقد نجح في ذلك بلا شك . لقد فهمه حتى الناس الاميين وان لم يكونوا قد استوعبوه تماما ، فهم كانوا ، على الاقل ، يحسون ما يقوله الشاعر . وقد تناول آرتورو باريا هذه النقطة في كتابه « لوركا ـ الشاعر والناس » مقدما امثلة عن انطباعات العمال البسطاء لدى سماعهم شعر لوركا . ففي شعره تستحضر اصوات الكلمات المحسوسة انطباعات بصرية ، وهذا ما يمنح الاشعار الغجرية جذبا عاطفيا ودراميا . اننا نحس بقوة زخم العواطف الاساسية المتزجة بالقصائد القصصية واشعار الحب ، والحزن ، والموت : الذي يكون المغزى المركزي لمعظم الاشعار القصصية واحد الافكار المهيمنة في اعمال لوركا . تحدث في احدى المرات عن الشعر « ان الديوندا لم تكن تحضره ابدا هي بالضرورة « امة موت ، امة تتفتح على الموت ، ان رجلا ميتا ابدا هي بالضرورة « امة موت ، امة تتفتح على الموت ، انن رجلا ميتا في اسبانيا اكثر حية ، عند موته ، من اي وقت آخر ، انها بلاد اهم ما فيها خاصية الموت القصوى » . ان هذه الحقيقة تنطبق على الشعر الاسباني ابتداء من القصائد الغنائية الاسبانية المبكرة . واعظم قصائد لوركا استلهمها عند موت صديقه مصارع الثيران اغناسيو سايخيز ميجاس . وقد يبدو محيرا ، للوهلة الاولى ، ان تكون الشعبية الهائلة التي حققتها له مجموعته الشعرية « اغان غجرية » عبئا ثقيلا عليه . فلانه كان يمقت الالقاب رفض ان يعتبره الاخرون شاعر الفجر ، انه لم يرض ان يكون ضحية نجاحه . وقد قال « ان الفجر مغزى ليس اكثر ، فانا قد اكون شاعر ابر الخياطة ، او شاعر المناظر الكهرومائية » . ولقد اجتاز فترة انقباض عميق ، كتب فيها لاحد اصدقائه يقول « اني الان انظم شعرا يتطلب انفتاح العروق ، شعرا نابعا من الواقع » واصبح الطريق لديوان « شاعر في نيويورك » (٦) مفتوحا الان .

وعندما اتيحت له الفرصة لزيارة اميركا لم يتردد في ذلك ، فوصل نيويورك صيف عام ١٩٢٩ ، وبتاثير صلات معهده قبل في جامعة كولومبيا والتحق بدوره لتعليم اللغة الانكليزية للاجانب . الا انه انسحب منها في الاسبوع الاول ، فور ان شعر بانه لا يستطيع تعلم هذه اللغة . ومع هذا فقد بقي في الجامعة يشترك برحلات قصيرة الى ريف فيرمونت حتى ربيع ذلك العام .

وبدأ بنظم القصائد التي جمعت تحت اسم « شاعر في نيويورك » وطبعت بعد وفاته عام ١٩٤٠ ولم تخدعه الاوهام التي وجدها في اميركا:

« جئت لارى الدم الموحل
الدم الذي هوى بالمصانع الى مساقط الشلالات ،
وبروحنا الى لسان الكوبرا

كانت نيويورك ، بالنسبة له « مدينة اعظم اشكال الفن العماري الانساني ، مدينة الايقاع الصاخب ، مدينة الهندسة ، مدينة العذاب ».

انه عالم غريب عما الفه في اندلسه المغتسلة بنور الشمس خلق تعارضا في عالمه الشعري . وليس بالمستطاع التوقع بان لوركا سينشد بنفس الصوت الذي انشد به في ديوان « اناشيد » او ديوان « اغان غجرية » فهو يحتاج الى صيغ مختلفة يعبر بها عن تعقيدات احاسيسه ، ووجد في طريقه التصوير السريالي وسطا ملائما لمزاجه الجديد . وقد سبق له ان قام ببعض المحاولات في هذا الاتجاه قبل مغادرته مدريد كما برزت في قصيدة Oda al Santisimo Sacromento del Alter وفي «اغنية الى سلفادور دالي» وفي بعض الصور التخطيطية النثرية ذات الطبيعة السريالية . ومما لا شك فيه انها كانت نتيجة لاحتكاكه الوثيق بسلفادور دالي وغيره من فناني اسبانيا وكتلات السرياليين . وقبل « شاعر في نيويورك » برز هذا التاثير في رسومه التجريدية وفي دفاعه العلني عن اعمال جوان ميرو وسلفادور دالي وفي الدور الذي لعبه لاصدار بيان سريالي مقترح . وغالبا ما يسدل الستار عن كل ما تقدم من قبل اولئك الذين يتناولون هذا الديوان كمثل منفصل غير ممثل لاعمال لوركا.وهذا ما يفسر عدم افهم الذي جوبه به ديوانه « شاعر في نيويورك » وخاصة بالبلدان الناطقة باللغة الاسبانية . وفي الحقيقة ، فان اغلب ما تعتمد عليه تراكيب لوركا من اساس يوجد في هذا الديوان ولكن بقرائن ذات تصدير سريالي وعبر دراما الزنوج ، والرجل الابيض سجين العالم الالي، والذي انسعاض عنه بدراما الفجر . لقد كانت حرارة عواطفه تجاه الزنوج صادقة تماما :

« اه هارلم ، اه هارلم ، اه هارلم
لا عذاب يضاهي عذاب رجالك الحمر المضطهدين
او يضاهي ارتجاف دمكم داخل الظلام المطفأ
ولا يضاهي لونكم العقيقي الاخرس الاصم العنيف في الضوء الخابي»

واذا كان « شاعر في نيويورك » سرياليا ، فانها سريالية اعقبت تحديد اسلوبه المتميز . وفي كتاباته من القوة ما لا يتوفر في مؤلفات غيره من السرياليين ، حيث الصلة العاطفية فيها مشدودة الى حقيقة صلدة كارتباطها بالصور الخيالية التي تنبثق منها . وبنفس الطريقة التي استخدم فيها الاشكال الاسبانية الموروثة لاغراضه الخاصة،يستخدم الان السريالية ، التي حاكى بها في بعض قصائده اسلوب والت وايتمان الذي قرأه مترجما في نيويورك . وقد لاحظ هذه الملامح جليا الكاتب الاميركي كونراد ايكن عندما كتب : « ان توركا هضم جميع خصائص السريالية وملأ بها فمه ومن ثم نفثها ، كساحر ، شعرا . وهو يفعل ذلك كما يفعل مع كل ما يتناوله . ان ديوان « شاعر في نيويورك » رغم تميزه الظاهر ينسجم مع التيار الرئيسي لاعمال لوركا . وهو ديوان ذو قيمة شعرية هائلة ، درامي ومعقد ، وملتصق بالواقع تماما

وفي ربيع عام ١٩٣٠ ، حس الشاعر بحاجته الى مناظر اكثر تألقا . ولذا فقد رحب بالدعوة التي تلقاها لالقاء محاضرات في هافانا وتوجه الى « جزيرة الشمس اللاهبة الجميلة » ومكث في كوبا حوالي شهرين سعيدا بجو الجزيرة اللاتيني . وقد اكتشف في الايقاعات الغنائية للاغاني الكوبية التراث الاسباني الذي عرفه جيدا ، وربما قاده هذا الى تحول في المزاج وعودة الى مصادر الهامه الاصلية ، بجذور اكثر رسوخا في التراث الاندلسي والاسباني والديني التي تكون معا اساس انتاجه . ان المحاضرتين اللتين القاهما في كوبا عززتا عودته الى المبادىء الاساسية للتراث الاسباني . وكانت احدى المحاضرتين عن اغاني الاطفال ، او اغاني المهد ، اما الاخرى فكانت عن « الديوندا » ، لا باعتبارها « الروح الشبحية » كما تفيد ترجمتها الحرفية ، ولكن باعتبارها روح الابداع التي يتصف بها كل فنان اندلسي . وتدى عودته الى اسبانيا ، مكث لفترة من الزمن في بيت ابيه الريفي قرب غرناطة ، وابتدأت آذ ذاك اكثر فترات حياته خصبا . فقبل نهاية عام ١٩٣٠ مثلت في مدريد مسرحيته الشعرية « زوجة الاسكافي المدهشة » التي بدأ بكتابتها عندما كان في نيويورك . وراحت تظهر في المجلات بعض اشعاره التي كتبها في نيويورك وخاصة في مجلة Revista de Occidente التي كان يحررها اورتيغا اي غاسيت .

(٦) نشرت « الاداب » الغراء في عدد ١٢ ـ ١٩٦٤ دراسة مترجمة عن ديوان « شاعر في نيويورك » كتبها انجل دل ريو استاذ اللغة الاسبانية بجامعة كولومبيا . ـ المترجمان ـ

وفي السنة التالية طبع له ديوان جديد « شعر الاغنية العميقة » وهو ديوان يرتبط بالفترة المبكرة التي ظهر فيها ديوانه « انـاشيد » مستمداً موضوعاته من الايام التي قضاها المؤلف بصحبة دي فالا عندما اعدا مهرجان « الاغنية العميقة » ـ الكانت هوندو ـ . وما قاله لوركا في تلك المناسبة يمكن ان ينطبق تماما على عمله هذا : « اننا باماطتنا اللثام عن الاغنية القديمة ، انما نحاول اكتشاف روح الاندلس » . وقد استخدم الشاعر هنا عناصر الفولكلور الاندلسي التي تلقاها بشكـل لا واع ، خلال سني حياته المبكرة ، بالاضافة الى ما استخلصه بشكل واع من ابحاثه في الشعر الشعبي . لقد كان يؤمن ايمانا راسخا بقيمة الشاعر القـروي المجهول الذي يستطيع « ان يستخلص بثلاثة او اربعة ابيات كل التعقيد النادر لاسمى اللحظات العاطفية في حياة الانسان . فثمة بيتان من الشعر تصل فيهما العاطفة الفنائية درجة لا يحققها الا شعراء قلائل :

« القمر مسود ،
مات حبي »

ففي هذين البيتين الشعبيين نجد غرابة اكثر مما نجد في اعمال مترلنك الدراسية ، انها غرابة بسيطة وحقيقية ونقية » .

ومع انبثاق الجمهورية عام ١٩٣١ ، وجد الفرصة سانحة لتقديم المسرح الى الشعب ، فقدم الى الحكومة مشروع مسرح متجول ، ممثلوه من الطلبة الجامعيين. واسفر ذلك عن تكوين فرقة «الباراكا» La Barraca التي اتبعت تقاليد الممثلين الجوالين ، فرحلت مع لوركا باعتباره مخرجا ومديرا عاما لها ـ الى اقصى القرى الاسبانية ، حيث مثلت مسرحيات مـن تاليف لوب دي فيجا وكالديرون وباقي الكلاسيكيين الاسبـان ، وغالبا ما تقترن هذه بموسيقى من اعداد الشاعر . لقد كان المتفرجون الفلاحون يشهدون التمثيل ، لاول مرة ، بحماس مشجع . وقد امدت ردود فعلهم البسيطة لوركا بتجربةلاتثمن ، افاد منها في كتابة مسرحياته التالية .

وقد مثلت اولى مسرحياته التراجيدية الشعرية « عرس الدم » في مدريد عام ١٩٣٣ ؛ وحازت على نجاح سريع ، وتكرر هذا النجاح عند عرض المسرحية في بوينس ايرس ، حيث مكث لوركا حتى الربيع التالي مساعدا في انتاج المسرحية ، ومقدما بعض المحاضرات ومنتجا ناجحـا لمسرحية من تاليف لوب دي فيجا .

ولدى عودته الى مدريد ، قدمت مسرحيته التراجيدية الثانيـة « يرما » على مسرح مدريد عام ١٩٣٤ ، وهي ، كسابقتها ، مسرحية تمثل حياة الريف الاندلسي ، ويدور مغزاها عن « الامومة غير المجدية » . وقد اكمل ثلاثيته بمسرحية « بيت برناردا البا » التي طبعت ومثلت بعـد وفاته وهي ذات واقعية كالحة كتب معظمها نثرا ، وفيها تقـع خمس شقيقات في حب رجل واحد ويتعرضن لجور امهن المتسلطة .

تنبع مسرحيات لوركا من نفس المصدر الذي ينبع منه شعره،وقد وهب لها القسم الاعظم من حياته . فلقد كان يؤمن بان المسرح يجعـل الشعر انسانيا ، وقد انجذب الى المسرح بسبب من حاجته للروابط الانسانية . وامدته مسرحياته بوسائل عبر فيهـا عن نفسـه بشكـل تراجيدي لصيق بشعره . وليست التراجيديا فقط هي التي احتلت مركز اهتمامه حينذاك ، آذ انه كتب بعد « يرما » مسرحية رومانسيـة ومؤثرة باجواء اواخر القرن التاسع عشر ، عن حياة البورجوازية فـي غرناطة وهي مسرحية « دونا روزيتا ـ الحائكة » او ـ لغة الزهور ـ ومثلت في برشلونة عام ١٩٣٥ ، وهي على حد تعبيـره مسرحية ذات « سخرية عذبة » وهناك ايضا مسرحيات اخرى مثل مسرحية « حال انصرام خمسة اعوام » وهي على العموم ذات نهج سريالي ، وقد تـم طبعها بعد وفاته .

وخلال هذه السنوات الخصبة لم ينقطع عن كتابة الشعر البحت ، اذ كان يعد ديوانا شعريا جديدا هو : Divan del Tamarit

الا انه صعق فجاة بموت صديقه الحميم ، مصارع الثيران اغنـاسيو سانجيز ميجاس ، فكتب ، بدون توقف تقريبا ، مرثاته العظيمة ذات الحركات الاربع : « مرثاة اغناسيو سانجيز ميجاس » التي تعتبر مـن افضل القصائد في الادب الاسباني المعاصر . وقد استخدم في كـل مقطع او حركة وزنا مغايرا ، محققا بذلك التاثير الدرامي للعمل ككل ، وينتصر الموت في النهاية :

« والثور وحده هو المنتصر »

وفي هذه القصيدة ، التي هي اكثر قصائده نضجا وحدة ، يتجلى كل ثراء ذهنه الشعري متبلورا . آن ما قاله عن صديقه ، يصدق حقا عنه ايضا :

« لن يولد لفترة طويلة ، ان ولد ،
اندلسي نبيل مقدام مثله . »

وفي الوقت الذي كان ينهي فيه القسم الاخير من ثلاثيته « بيت برناردا البا » كان منشغلا ايضا بديوان يتضمن قصائد من نوع«السوناتا» Sonetos del amor oscuro الا ان مخطوطات هـذه السوناتات فقدت ، كما يبدو ، اثناء الحرب الاهلية . ويمكن الحكم علـى مدى الخسارة من كلمات الشاعر فنسنت الكساندر التالية : « لقد كان يقرأ لي ديوانه « السوناتات » فكان معجزة في العواطف واتحماس والسعادة والعذاب . انه نصب خالص للحب . ومادة الديوان الرئيسية هي لحم الشاعر ودمه ، قلبه ، روحه ، المنفتحة بسعة ، على تهدمه الخاص . وحدقت فيه وانا مصعوق دهشة وقلت : فيديريكو ، اي قلب ! لكـم احببت ! وكم قاسيت ! » .

وتوقفت حياة الشاعر في ذروة تطوره باغتيال مجهـول . ان شخصيته واعماله لا يمكن فصلهما . وما قاله عـن الشاعر غونفورا ينطبق عليه :

غونفورا ، ينبغي ان لا يقرأ . وانما ينبغي ان يحب

ترجمة : فاضل ثامر وسلمان حسن العقيدي
ـ العراق ـ

في السوق :

الناس والحب

مجموعة قصصية جديدة

تاليف

محمد ابو المعاطي ابو النجا

منشورات دار الاداب